وإنْ أساءَ مسيءٌ فوقَ طاقَتِهِ أحسنتُ مُجتهداً حتى أُخَجِّلَهُ

وقال: أنشدَنا الحافظُ السِّلفي لابن رشيق، وقد قيل له: لم لا تركبِ البَحْرَ للحَجِّ؟ فقال معتذراً:

البَحْرُ صَعْبُ المَرَامِ هَوْلٌ لا جُعِلَتْ حاجتي إليهِ

أليسَ ماءً ونحنُ طِيْنٌ فَهَلْ ترى صَبْرَنا عليهِ

ولعبد الجَبَّار الكاتب:

لا أركبُ البحرَ خَوْفاً عليَّ منه المَعَاطِبْ

طينٌ أنا وَهْوَ ماءٌ والطِّيْنُ في الماءِ ذائِبْ

ولأبي الفتح البُسْتي:

إنَّ ابنَ آدمَ طِيْنٌ والبَحْرُ ماءٌ يُذِيْبُهْ

لولا الذي فيه يُتْلَى ما جازَ عندي رُكُوبُهْ

وله أيضاً:

وأخضر لولا آيةٌ ما رَكِبْتُهُ ولله تصريفُ القَضَاءِ بما شاءَ

أقول حِذَاراً مِنْ ركوبِ عُبابِهِ أياربِّ إنَّ الطِّينَ قد رَكِبَ الماءَ[1]

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وست مئة

ففيها قَدِمَ من بغداد محيي الدِّين يوسف بن الجوزي رسولاً إلى المُعَظَّم، ومعه الخِلَع لأولاد العادل من عند الخليفة الظاهر، ومضمونُ رسالته طلبُ رجوعِ المُعَظَّم عن موالاة الخوارزمي.

قال أبو المُظَفَّر: وحكى المُعَظَّم صورةَ الرِّسالة، قال: قال لي خالك: المصلحة رجوعُك عن هذا الخارجي إلى إخوتك، ونُصْلح بينكم. وكان المعظم

(١) الأبيات التي نسبت لأبي الفتح البُسْتي لم أجدها في ديوانه المطبوع.

قد بَعَثَ مملوكه الرَّكين إلى الخوارزمي، فرحَّله من تفليس، فأنزله على خِلاط، والأشرف بحرَّان. قال: فقلتُ لخالك: إذا رجعتُ عن الخوارزمي، وقَصَدني إخوتي، تُنْجِدُوني؟ قال: نَعَمْ. قلتُ: ما لكم عادة تنجدون أحداً، هذه كُتُبُ الخليفة النَّاصر عندنا، ونحن على دِمْياط، ونحن نكتُبُ نستصرخ به، ونقول: أنجدونا. فيجيء الجوابُ بأنْ قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة، ولم يفعلوا، وقد اتَّفقَ
١٤٨ إخوتي عليَّ، وقد أنزلتُ الخوارزميَّ على خِلاط، إنْ قَصَدَني الأشرفُ منعه الخوارزمي، وإنْ قصدني الكامل كان فيَّ له[١].

وفيها قَدِمَ الأشرف دمشق، وأطاع المُعَظَّمَ، وسأله أن يسألَ الخوارزميَّ أن يَرْحَلَ عن خِلاط، وقال: نحن مماليكك، وما أنبتَ الشَّعْرَ على رؤوسنا إلا أنتَ. فبعث المُعَظَّمُ، فرحل الخوارزمي عن خِلاط، وكان قد أقام عليها أربعين يوماً، ونَزَلَ الثَّلْج، وأقام الأشرف عند المُعَظَّم بدمشق. وكان المعظم يَلْبَس خِلْعة الخوارزمي، ويركبُ فرسه، وإذا جلسوا على تلك الحال يحلف المعظم برأس خوارزم شاه، وعند الأشرف من هذا المُقْعِد المُقيم، وهو ساكت[٢].

قال: وتوجَّه خالي إلى مِصْر إلى الكامل، وهذه أوَّلُ سَفْرَةٍ سافرها خالي إلى الشَّام ومِصْر[٣].

قال: وفيها حَجَّ بالنَّاسِ من العراق ابن أبي فراس، ومن الشَّام علي بن السَّلَّار[٤].

---

(١) مرآة الزمان (حوادث سنة ٦٢٣ هـ).

وقوله: كان فيَّ له، تعبير عامي، مازال في عامية أهل الشام، ويعني: أستطيع أن أتصدى له وحدي.

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف.

(٤) المصدر السالف.

وفيها فوَّض إليَّ المُعَظَّمُ تدريس مدرسة شِبْل الدَّوْلة بقاسيون[١].

قلتُ: وفي يوم جلوسه للتدريس بها توفي شمسُ الدين محمد بن شيخنا عَلَم الدِّين السَّخاوي رحمه الله بدمشق، ودُفِنَ بالجبل.

وفيها في آخر ربيع الأول توفي بدمشق قاضي قُضَاتها جمالُ الدِّين يونس بن بَدْران بن فيروز المِصْري[٢]، ودُفِنَ في داره بدَرْب الرَّيحان.

وكان فقيهاً، كثير الاشتغال، واختصر كتابَ «الأم» للشَّافعي رحمه الله، وصنَّف فرائض كثيرة تحتوي على مسائل كثيرة، وكان قد اعتنى به الوزير صفيُّ الدِّين ابن شُكْر، فجعله وكيلَ بيتِ المال، وفوَّض إليه التدريس بالمدرسة الأمينية بعد تقي الدِّين الضَّرير[٣]، ثم صار يترسَّل عن العادل إلى الخليفة، وإلى الملوك بالرُّوم، وبلاد الشَّرْق، وحلب، وغيرها، ثم ولاه المُعَظَّم بعد الزكي الطاهر قضاء قُضَاة الشَّام، وفوَّض إليه التدريس بالمدرسة العادلية، فهو أوَّلُ من ذَكَرَ الدَّرْس بها، فكان يذكر بها قبل درس الفِقْه درساً من تفسير القرآن طويلاً، ويجري فيه مباحث حَسَنة، فإنه كان يحضُره معنا جماعةٌ من الفُضَلاء، فاتَّفق أنْ

---

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٣هـ).

(٢) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ١٧٣ ـ ١٧٤، مفرج الكروب: ٤/ ١٧١ ـ ١٧٣، (وفيه وفاته ٦٢٢ هـ)، وهو خطأ، تاريخ الإسلام (ت ٢١٦، وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ٢٥٧، العبر للذهبي: ٥/ ٩٧، الوافي بالوفيات: ٢٩/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨، طبقات الشافعية للسبكي: ٨/ ٣٦٦، طبقات الشافعية للإسنوي: ٢/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٦٦، حسن المحاضرة: ١/ ٤١١، الدارس: ١/ ١٨٦ ـ ١٨٨، القضاة الشافعية للنعيمي: ٦٤ ـ ٦٥، شذرات الذهب: ٥/ ١١٢.

وفي مفرج الكروب: وكان شديد السمرة، يلثغ بالقاف ويجعلها همزة، وكذلك ذكر الذهبي في السير: ٢٢/ ٢٥٧، وسينعته أبو شامة بلثغته هذه في قصيدته الفلاحة الرائية ص ١٨٥ من الجزء الثاني.

(٣) سلفت وفاته سنة (٦٠٢ هـ)، انظر ص ١٧٤ من هذا الجزء.

فَرَغَ مِنْ ذكر التفسير من أول القرآن إلى آخره، فلما تَمَّ له ذلك توفي بعده بقليل، رحمه الله.

وكان في ولايته عفيفاً في نفسه، نَزِهاً، ملازماً لمجالس الحكم بالشُّبَّاك الكمالي بالجامع وغيره، وكان إذا جَلَسَ فيه بعد العَصْر لا يزال إلى أن يُصَلِّي المغرب، وفي بعض اللَّيالي يصلِّي العِشاء الآخرة، فكان إذا فَرَغَ من الحكم بين الخصوم تجري بحضرته المذاكرة في العِلْم إلى حين انفصاله.

ويجلس بُكْرَة كلَّ يومِ جُمُعة ويوم الثُّلاثاء بإيوان المدرسة العادلية لإثبات الكُتُب، ويصطفُّ شهودُ البلد في جوانب الإيوان، فكان مجلساً عليه جلالة، ولم يكن يضيع فيه الزَّمان في غير ما هو بصدده، بل هو ملازِمٌ لما ذكرنا في الأيام كلِّها السبت وغيره.

ولم يُنْقَم عليه شيءٌ في ولايته سوى أنه كان إذا ثَبَتَ عنده وراثة شخص لما وَضَعَ نُوَّابُ بيتِ المال أيديهم عليه يأمره بمصالحة بيت المال، فيقتطع منه قطعةً لبيت المال، وأما لنفسه فلم يشتهر عنه شيء من ذلك. ونُقِمَ عليه أيضاً استنابته لولده التَّاج محمد، ولم تكن طريقته مستقيمة، وكان يذكر أنه قُرَشي، فتكلَّم النَّاسُ في ذلك.

وتولى القضاءَ بعده شمسُ الدِّين أحمد بن الخليل[1] بن سعادة بن جعفر بن عيسى[1] الخُوَيِّ والمدرسةَ العادلية، والله أعلم[2].

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في (ب) و(ك) و(ع) و(س).

(٢) في (ب) و(ك) و(ع) و(س): زيادة: قلت: شمس الدين الخويي هو أبو العباس أحمد بن خليل ابن سعادة بن جعفر بن عيسى، باشر الحكم بدمشق يوم الأحد سادس شهر ربيع الآخر [في (ك) و(ع) و(س) الأول، وهو خطأ] سنة ثلاث وعشرين وست مئة.

وفي (ك) و(ع) و(س) زيادة أخرى وهي: نقلت من خط بعض من له عناية بجمع التاريخ أن جمال الدين المصري المذكور باشر الحكم مع بقية النواب لما انفصل الزكي المذكور، ثم استقل بالحكم في يوم الثلاثاء ثامن عشري رجب سنة تسع عشرة وست مئة. =

١٤٩ وفيها في شهر رجب ـ أو شعبان ـ توفي الشيخ تقي الدِّين خَزْعَل[١] بن عسكر بن خليل، الشنائي المِصْري النَّحْوي، ودُفِنَ بباب الصَّغير.

وكان ـ رحمه الله ـ شيخاً حسناً، فاضلاً، مفنَّناً متواضعاً، قاضي الحاجة لكلِّ من يقصده، أقام بالقُدْس الشَّريف زماناً يقرئ النَّاسَ به، حتى كان يُعرف بنَحْوي القُدْس، ثم قَدِمَ دمشق سنة خَرَّبَ القُدْس المُعَظَّمُ، وهي سنةُ خمس عشرة[٢]، فأُعطي إمامة مشهد علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ بالجامع.

وأُنزل في المدرسة العزيزية، فكان يقرئُ بها، ويتولَّى عقودَ الأنكحة، وكنتُ إذ ذاك ساكناً بالمدرسة، وأتردَّد إليه، فقرأتُ عليه بها عَرُوض النَّاصح بن الدَّهَّان المَوْصِلي؛ أخبرني به عن مصنفه، وقرأتُ أيضاً عليه جدل الكمال الأنباري، وأخبرني به أيضاً عن مصنِّفه، وأنشدني لنفسه قصيدة ميمية في حَصْر أقسام الواو[٣]، وغير ذلك.

= قلت: وهذه الزيادات ليست من أبي شامة، يدل على ذلك سياقها، ويعرفها من له إلمام بأسلوب أبي شامة في سرد الأخبار، والله أعلم.

ولاستقلال جمال الدين المصري بالقضاء سنة (٦١٩ هـ)، انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٤٦ من هذا الجزء.

(١) له ترجمة في إنباه الرواة: ١/ ٣٥٣ـ ٣٥٤ـ وأسماء القفطي الرأي فيه كعادته في معاصريه ـ والتكملة للمنذري: ٣/ ١٨٤ ـ ١٨٥، بغية الطلب: ٧/ ٣٢٤١ـ٣٢٤٣، تاريخ الإسلام (ت ١٧٤، وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ١٨١، الوافي بالوفيات: ١٣/ ٣٠٩ـ ٣١٠، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٦٦، بغية الوعاة: ١/ ٥٥٠ ـ ٥٥١.

(٢) يعني في أواخرها، لأن المعظم باشر تخريب أبراجها وسورها في أول محرم سنة ٦١٦ هـ، انظر ص ٣١٣ من هذا الجزء.

(٣) هي في «بغية الطلب»: ٧/ ٣٢٤١، وقد رواها ابن العديم بإسناده إلى الشيخ خزعل، وقد أتى التصحيف والتحريف في المطبوع منه على معالمها، فأحببتُ أن أثبتها هنا خوفاً عليها من الضياع، وهي:

وممتحنٍ يوماً ليهضمني هَضْما ... عن الواو كم قسماً فقلتُ له نَظْما

فَقِسْمَتُها عشرون ضرباً تتابعتْ ... فدونكها إني لأرْسُمها رَسْما =

وكان يحثُّني على حِفْظ الحديث والتفقُّه فيه خصوصاً «صحيح مُسْلم»، ويقول: إنه أسهل من حِفْظ كُتُب الفِقْه وأنفع. وصَدَقَ رحمه الله.

وحثَّ على مَسْح جميعِ الرأس في الوضوء احتياطاً، وبحث في دليله، فأعجبني، واستقرَّ في نفسي، فما أعلم أني تركتُهُ من ذلك الزمان إلى الآن، والله المستعان فيما بقي لنا من الزَّمان.

وكنت أرى منه مروءةً تامة في توليه عقود الأنكحة، وفي فَسْخِها، وفي فِعْله فيما يحصُلُ منها، فكان إذا غَلَبَ على ظَنِّه فَقْرَ أهلِ الواقعة لا يأخذ منهم شيئاً، وأما عند الطَّلاق والفِرَاق فلا يأخذ شيئاً أصلاً سواء كانوا فقراء أو أغنياء، وكان ما يتحصَّل له من ذلك يتصدَّق بجُمْلة منه، فلا يَرُدُّ سائلاً. وربما جاءه من يطلُبُ منه شيئاً، وليس عنده، فيقول: اقعد، فما يأتي فهو لك. فأوَّلُ شُغْل يأتيه يعطي ذلك القاصد ما يحصل منه كائناً ما كان، ومن مروءته أنه فُوِّض إليه المسجد الذي قِبْلي قيسارية الفرش، وكان لصاحبنا شمس الدِّين محمد بن عبد الجليل، واتَّفق أنَّه فارقه، وسافَرَ عنه متزهِّداً إلى العراق، ثم اتَّفق رجوعُه، فَنَزَلَ له عن المسجد، ورَدَّه إليه، فاستُحْسِنَ ذلك منه، وحُمِدَ عليه، رحمه الله.

وفيها توفي في رجب زكي الدِّين، أبو القاسم، هبة الله بن[1] المعروف بابنِ رواحة[2].

= فأصْلٌ وإضمارٌ وجمعٌ وزائدٌ ... وعطفٌ وواو الرَّفْعِ في الستة الأسْما
ورُبَّ ومعْ قد نابت الواو عنهما ... واوك في الأيْمان فاستمعِ العِلْما
واوك للإطلاق والواو ألحقتْ ... وواو بمعنى إذْ فدونك والحَزْما
وواو أتتْ بعد الضمير لغائبٍ ... وواوك في الجمع الذي يورث السُّقْما
وواو الهجا والحال واسم لما له ... سنامان من دون الجمال به يُسْمى
وواوك في تكسير دارٍ وواو إذْ ... وواو ابتداءٍ ثم عَدِّي بها تمَّا

(١) بيض له أبو شامة واسمه كما في «التكملة» للمنذري: هبة الله بن محمد بن عبد الواحد الأصبهاني الحموي العدل، ابن رواحة.

(٢) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ١٥١ ـ ١٥٢، وفيات =

من أكابر العدول والتُّجَّار أُولي الثروة، وبنى بحلب مدرسةً للشَّافعية، وبدمشق مثلها داخل باب الفراديس، ووقَفَ عليهما أوقافاً حسنة، وقَنِعَ بعد ذلك باليسير، وكان يسكُنُ في بيتٍ بالمدرسة الدمشقية، وهو الذي في إيوانها من الشَّرْق، ويقابله من الغَرْب خزانة الكتب التي وقفها؛ وهي كتُبٌ جليلة.

وكان ـ رحمه الله ـ تامَّ الخِلْقة طويلاً وعريضاً إلا أنه كان لا لحية له أصلاً، وكان مُبَجَّلاً عند القُضاة، وكان قد أَسْنَدَ النَّظَرَ في مدرسته التي بدمشق إلى الشيخ تقي الدين عثمان بن الصَّلاح، ثم إنه بعد موته شَهِدَ عليه بالعَزْل له الشَّيخان تقي الدِّين خَزْعَل ـ المقدَّم ذكره[1] ـ ومحيي الدين محمد بن العربي ـ وكانا ساكنين قريباً من المدرسة ـ فزعما أنه استدعى بهما ليلاً، وأشهدهما عليه بعزل ابنِ الصَّلاح عن نظر المدرسة، وجَرَتْ في ذلك فصول لا حاجة إلى ذكرها، وكأنه كان قد ألهمه الله تعالى المصلحة في ذلك، فإنَّ ابنَ الصَّلاح أسند النظر إلى شخصٍ[2]، أسنده ذلك الشَّخْصُ إلى ولدٍ له، فَغَلَبَ على وقف المدرسة وتدريسها بغير أهليَّة ولا استحقاق، ولا أمانة ولا عدل ولا إشفاق، والأمر على ذلك إلى الآن[3]، والله المستعان. ودفن الزكي ابن رواحة بمقابر الصُّوفية، رحمه الله تعالى.

= الأعيان: ٣/ ٢٤٥، تاريخ الإسلام (ت ١٤٨، وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، الوافي بالوفيات: ٢٧/ ٣٢٥، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، الدارس: ١/ ٢٦٥ـ٢٦٧، شذرات الذهب: ٥/ ١٠٤.

وقد تابع سبطَ ابنَ الجوزي في ذكره في وفيات سنة ٦٢٣ هـ أبو شامة، وابن كثير في البداية والنهاية، أما بقية من ترجم له فذكر أن وفاته سنة (٦٢٢ هـ)، بل إن الذهبي قال في «تاريخ الإسلام»: وغلط من قال إنه مات في سنة ثلاث.

(١) انظر ص ٣٨٩ من هذا الجزء.

(٢) هو شمس الدين عبد الرحمن بن نوح، وسترد ترجمته في وفيات سنة (٦٥٤ هـ)، ص ١٠٧ من الجزء الثاني.

وولده هو الناصر محمد بن عبد الرحمن، كان سيِّئ السيرة، وتوفي سنة (٦٨٦ هـ)، انظر ترجمته في الدارس: ١/ ٢٦٧.

(٣) يعني بذلك سنة (٦٥٩ هـ)، كما ذكر ذلك أبو شامة مراراً.

وفيها توفي في رجب أيضاً الخليفةُ الظَّاهر بأمر الله، محمد بن النَّاصر أحمد[١].

ولي تسعة أشهر وأياماً، قام فيها بالعَدْل حَسَب طاقته، وغسله محمد الخَيَّاط الشَّاعر.

قال أبو المُظَفَّر: وحكى لي أنه دخل يوماً إلى الخزائن، فقال له خادم: في أيامك تمتلئ. فقال له: ما جُعِلَتِ الخزائنُ لتمتلئ، بل لتفرغ وتنفق في سبيل الله، فإنَّ الجمعَ شُغْلُ التُّجَّار[٢].

وولي بعدَه ابنُهُ أبو جعفر منصور بن محمد، ولقبه المستنصر بالله، فبنى المدرسة المستنصرية ببغداد للمذاهب الأربعة، وتوفي سنة أربعين، وسيأتي ذكره[٣].

وفيها في رجب أيضاً توفي شِبْل الدَّوْلة كافور الحُسَامي[٤]؛ نُسِبَ إلى حسام الدِّين محمد بن لاجِيْن[٥]، ولد ستَّ الشَّام بنت أيوب.

---

(١) له ترجمة في الكامل: ١٢/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ١٨٢ ـ ١٨٣، مفرج الكروب: ٤/ ١٩١ ـ ١٩٦، تاريخ الإسلام (ت ٢٠٠، وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ٢٦٤، العبر للذهبي: ٥/ ٩٥ ـ ٩٦، الوافي بالوفيات: ٢/ ٩٥ ـ ٩٧، نكت الهميان: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦٢٣هـ)، السلوك للمقريزي: ج١/ ق١/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٦٥، شذرات الذهب: ٥/ ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٣ هـ).

(٣) ص ٦٠ من الجزء الثاني.

(٤) له ترجمة في التاريخ المنصوري: ١٢٨، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، وفيات الأعيان: ١/ ٣٠٧، تاريخ الإسلام (ت ١٩٩، وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، العبر للذهبي: ٥/ ٩٥، الوافي بالوفيات: ٢٤/ ٣١٠، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٦٤، الدارس: ١/ ٥٣٠ ـ ٥٣١، شذرات الذهب: ٥/ ١٠٩، منادمة الأطلال: ١٧٦ ـ ١٧٨.

(٥) اختلف في اسمه، فهو محمد بن عمر بن لاجين، وقيل: عمر بن محمد بن لاجين، وقد حضر مع خاله صلاح الدين موقعة حطين سنة (٥٨٣ هـ)، وأرسله مع فرقة من العسكر إلى نابلس، =

كان خادماً، عاقلاً، دَيِّناً، صالحاً، مهيباً، له حُرْمةٌ وافرة في الدَّولة، ومنزلةٌ عالية عند الملوك، اعتمدَتْ عليه سَيِّدَتُهُ ستُّ الشَّام في بناء تُرْبتها ومدرستها الشَّافعية بمحلَّة العُوَيْنة.

وكان هو حنفيَّ المذهب، فبنى مدرسةً لأصحابِ أبي حنيفة عند جسر كحيل في طريق الجبل، ولصيقها تُرْبته والخانقاه، ووقفَ عليها أوقافاً جليلة، وبنى المصنع قُبالة ذلك، والقناة، والسَّاباط المظلِّل للطَّريق، والمصنع الآخر الذي برأس الزُّقاق الطَّويل، وفَتَحَ للنَّاس طريقاً إلى الجبل من عند المَقْبُرة التي هي غربي المدرسة الشامية تفضي إلى عين الكرش[1]، ولم يكن إليها طريقٌ قبل ذلك إلا من جهة مسجد الصَّفي المجاور لمقبرة باب الفراديس، وله صدقاتٌ دارَّة، وإحسان كثير. ودفن بتربته إلى جانب مدرسته المذكورة. وكان قد سمع الحديث على الشَّيخ تاج الدِّين الكِنْدي وغيره، رحمه الله.

وفيها توفي المبارز إبراهيم بن موسى، المعروف بالمعتمد، والي دمشق[2].

ولد بالمَوْصِل؛ وقَدِمَ الشَّام، فَخَدَمَ فَرُّخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، وتقلَّبت به الأحوال، واستنابه أخو فَرُّخشاه لأُمِّه بدرُ الدِّين ممدود[3] الشِّحْنة بدمشق، ثم ولاه العادل الشِّحْنِكيَّة استقلالاً، فأَحْسَنَ السِّياسة، ولَطَفَ

= ففتحها بالأمان، فولاه عليها حتى وفاته بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان (٥٨٧ هـ)، ودفن بالتربة الحسامية المنسوبة إليه، وهي من بناء والدته ست الشام بنت أيوب في القبر الشمالي فيها، وهي قرب المدرسة الشَّامية البرانية، انظر «كتاب الروضتين»: ٣/ ٦٥، ٢٧٦، ٣١٥، ٣١٦، ٤/ ٢٩١.

(١) عين الكرش كانت حتى خمسينيات القرن العشرين عيناً ثرة تسقي بساتين كثيرة، أما الآن فهي منطقة سكنية ما تزال تحمل اسمها، ولا أثر للعين فيها.

(٢) له ترجمة في التاريخ المنصوري: ١٢٩، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، تاريخ الإسلام (ت ١٦١، وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، الوافي بالوفيات: ٦/ ١٥١ ـ ١٥٢، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦٢٣ هـ).

(٣) في النسخ الخطية: مودود وهو سبق قلم، وقد سلفت ترجمته ص ١٧٢ من الجزء الأول.

بالرَّعية، وكان بين يديه نقيبٌ له يعرف بسويد، مِنْ أحذقِ النَّاس، وأعرفهم بتدبير وقائع الولاية.

وكان المعتمد دَيِّناً وَرِعاً، عفيفاً نَزِهاً، اصْطَنَعَ عالماً عظيماً من النِّساء والرِّجال، وسَتَرَ عليهم كبائر الأحوال، وكانت دمشق وأعمالها في أيام ولايته لها حُرْمةٌ ظاهرة، وهي حُرَّة طاهرة.

قال أبو المُظَفَّر: ومما جَرَى له أنه كان في دمشق رجلٌ فاتك، وإلى جانب بيته قومٌ لهم ولدٌ صغير، في آذانه حَلَقٌ من ذَهبٍ، فاغتاله الرجل يوماً، فخنقه، وأخذ الحَلَقَ من أُذُنه، وأخرجه في قُفَّةٍ، ودفنه في باب الصَّغير، وفقدته أُمه، فاتَّهمتِ الرَّجلَ به، فعذَّبه المبارز عذاباً أليماً، فلم يُقِرَّ، وأطلق، وفي قلبِ المرأة النَّار من [فَقْدِ][1] ولدها، فطلَّقَتْ زوجَها، وتزوَّجَتِ الرَّجُلَ القاتل، وأقامت معه مُدَّة، فقالت له يوماً، وهي تداعبه: قد مضى الابن وأبوه، وكان منهما ما كان ـ وكان الزوج قد مات ـ أنت قتلت الصغير؟ فقال: نَعَمْ، وأخذْتُ الحلق، ودفنته بالباب الصَّغير. فقالت: قم، فأرني قبره. فأخذها، وخَرَجَ بها إلى المقابر، وحَفَرَ القبر، فرأت ولدَها، فلم تتمالك، وضَرَبَتِ القاتلَ بسكِّين أعدَّتها له، فشقَّتْ بَطْنَه، ودفعته، فألقته في القبر. وجاءت إلى المبارز، فحكتْ له الحكاية، فقامَ، وخَرَجَ معها إلى القبر، فكشَفَتْهُ له. فقال لها: أحسنتِ والله، ينبغي لنا كلنا أنْ نَشْرَبَ لك فتوَّةً[2].

قال: وحكى لي ـ رحمه الله ـ قال: لمَّا حَرَّمَ العادل الخمور ركبتُ يوماً، وخرجتُ من باب الفَرَج، وإذا برجلٍ في رقبته طَبْلٌ، وهو يتمايلُ تحته، فقلت: أمسكوه، وشقُّوا الطَّبْل. فَشَقُّوه، وإذا فيه زُكْرة خمر[3]، فبدَّدْتُها، وضَرَبْتُهُ الحَدَّ،

(١) ما بين حاصرتين من «مرآة الزمان».

(٢) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٣ هـ)، قلت: كان من تقاليد الفتوة شرب كأس الفتوة، وهو يحتوي على الماء والملح، انظر «مفرج الكروب»: ٣/٢٠٦ حاشية رقم ٢.

(٣) الزُّكْرة: زق الخمر.

قال: فقلتُ له: مِنْ أين علمتَ؟ قال: رأيتُ رجليه وهي تلعب، فعلمتُ أنه قد حَمَلَ شيئاً ثقيلاً[١].

قال: وكان لداره بابان: الباب الكبير عليه الغِلْمان والنوَّاب، وباب السِّرِّ في زُقاقٍ آخر، فكان النواب إذا مسكوا في الليل امرأةً من بيتٍ معروف، وحملوها إليه على حالها، يقول لهم: انزلوا حتى أقرِّرَها. ثم يقول لها: يا بنتي، أنتِ من بيتٍ كبير، وأهلك رجال معروفين[٢]، فما الذي حداك[٣] على هذا؟ فتقول: يا سيدي، قضاء الله. فيقول لها: سَتَرَ الله عليك. ويبعث معها الخادم ١٥١
من باب السِّرِّ إلى بيتها. فأقام على هذا نحواً من أربعين سنة[٤].

قال: وكان في قلب المُعَظَّم له شحناء، لأنه كان يُشْفِقُ عليه ويحفظه في أماكن يدخل إليها بدمشق في الليل وهو شابٌّ، فيأمر غِلْمانَه أن يتبعوه من بعيد، وكان العادل من مِصْر يكتب إليه بذلك. فلما ماتَ العادل أظهر ما كان في قلبه منه، فاعتقله مُدَّة في القلعة، فلم يظهر عليه ولا على أحدٍ من أولاده وحاشيته أنه أخذ من الرعية ما مقداره مِثْقال حبَّةٍ من خَرْدل، ولا غَيَّر ما كان عليه من العِفَّة والأمانة، والصَّلاح، والدِّيانة، ثم أنزله من القلعة إلى داره، وحَجَرَ عليه فيها، وبالَغَ في التشديد عليه، وكانت وفاته يوم السبت الحادي والعشرين من ذي القعدة عن ثمانين سنة، ودفن بجبل قاسيون في التربة التي أنشأها بالجبل[٥].

قال: وحكى لي أنه ولي دمشق نيابةً عن بدر الدِّين الشِّحْنة أول ولاية صلاح الدين، ثم استقلَّ بالولاية إلى أن عُزِل في سنة سبع عشرة وست مئة،

---

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٣هـ).

(٢) كذا، على اللفظ العامي.

(٣) في (ك) و(ع) و(س): حملك.

(٤) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٣ هـ).

(٥) المصدر السالف.

وكانت ولايته نيابةً واستقلالاً قريباً من خمسين سنة[١].

قال: ولم يؤخذ على المبارز شيء إلا أنه كان يحبس وينسى، فعوقب بمثلِ ذلك؛ أقام محبوساً خمس سنين إلا أياماً[٢].

قال: وجَرَتْ لي معه واقعةٌ عجيبة؛ كنتُ في كلِّ ليلةِ جُمُعةٍ أزوره، وانقطعت عنه مُدَّة بسبب إغلاق باب داره في بعض الأوقات، فرأيتُ في المنام كأن قبره في روضةٍ خضراء، والقبر معمول بالفَصِّ الأخضر، وليس هو من جنس فصوص الدُّنيا، فطَرِبْتُ لحُسْنه ورونق المكان، فَهَتَفَ بي هاتِفٌ: لو رأيتَ ما في باطن القبر. قلتُ: وما في باطنه؟ قال: الدُّرُّ والياقوت والمَرْجان، وما يستغني عن قراءة كتاب الله تعالى. فانتبهتُ وفهمت الإشارة، فأنا في كلِّ ليلةٍ أقرأ ما تيسَّر من القُرْآن، وأهديه إليه، وإلى أهلي وأصحابي ومعارفي[٣]، رحمهم الله وإيانا.

وفيها توفي البدر الجَعْبري[٤] والي قلعة دمشق، أقام واليها مُدَّة في أيام المُعَظَّم، وخَدَمَ الظَّاهر بحلب وغيره، وحُمل إلى بالس، فَدُفِنَ عند أهله.

ثم دخلت سنةُ أربعٍ وعشرين وست مئة

ففيها قَدِمَ رسولُ الإنبرور ملك الفرنج البحرية على المُعَظَّم بعد اجتماعه بالكامل، يطلبُ منه البلاد التي كان فتحَها عَمُّه صلاحُ الدِّين رحمه الله، فأغلظ له، وقال: قل لصاحبك ما أنا مثل الغير، ما له عندي سوى السَّيْف.

وفيها في آخر شعبان سافرتُ أنا إلى بيتِ المقدس صحبةَ الفقيه عِزِّ الدِّين

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٣هـ).

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف.

(٤) له ترجمة في التاريخ المنصوري: ١٢٨، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٣ هـ).